يتهيأ القلب لقبول إلهام الملك يسمى توفيقا والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا
فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسباب مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة
الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالمعروف وقد خلقه الله تعالى وسخره لذلك والشيطان
عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر
فالوسوسة في مقابلة الإلهام والشيطان في مقابلة الملك والتوفيق في مقابلة الخذلان وإليه الإشارة
بقوله تعالى ومن كل شيء خلقنا زوجين فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه
لا مقابل له بل هو الله الواحد الحق الخالق للأزواج كلها والقلب متجاذب بين الشيطان والملك فقد
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق
بالحق ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير وقال الحسن إنما هما همان يجولان
في القلب هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان لله أمضاه وما كان من عدوه
جاهده ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن بين إصبعين
من أصابع الرحمن والله سبحانه تعالى عن أن يكون له إصبع مركب من لحم وعظم وجرح منقسم بالأنامل
ولكن روح الإصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير فإنك لا تريد إصبعك لشخصه
بل لفعله في التقليب والترديد وكما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك فالله تعالى إنما يفعل ما يفعله
باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في تقليب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك في
تقليب الأجسام مثلا والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملائكة ولقبول آثار الشياطين صلاحا
متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على
الشهوات والإعراض عنها ومخالفتها فإن اتبع الإنسان مقتضى الشهوة والغضب ظهر تسلط الشيطان
بواسطة الهوى وصار الشيطان عين القلب ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه وإن عش الشيطان
جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم
ولما كان لا يخلو القلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية
المنشعبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ولذلك
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا وله شيطان قالوا وأنت يا رسول الله قال وأنا إلا
أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم ولا يأمر إلا بخير وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة
الشهوة فمن أعانه الله تعالى على شهوته حتى صار لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته
لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدرع بها لا يأمر إلا بالخير ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات
الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله عز وجل ارتحل الشيطان

وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن
ينفتح القلب لأحدهما فيستمكن ويستوطن ويكون اجتياز الثاني اختلاسا وأكثر القلوب قد
فتحها جنود الشياطين وملكوها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة
ومبدأ استيلائها اتباع الهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله الذي هو مطرح آثار الملائكة
قال جرير بن عبيدة العدوي شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة
فقال إنما مثل ذلك مثل البيت الذي تمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه يعني أن
القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال تعالى إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكل من
اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله فلذلك سلط عليه الشيطان وقد قال تعالى أفرأيت من اتخذ إلهه
هواه إشارة إلى أن الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الشيطان لا عبد الله تعالى وقال عثمان بن العاص
يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال عليه السلام ذلك شيطان يقال له خنزب
إذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله تعالى عني
وفي الخبر إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه ولا يمحو وسوسة الشيطان عن
القلب إلا ذكر شيء ما سوى ما يوسوس به لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم عنه ما كان فيه من قبل
ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أن يكون أيضا مجالا للشيطان فذكر الله تعالى هو
الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعالج الشيء إلا بضده وضد جميع وساوس
الشيطان ذكر الله تعالى بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان
الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الذين الغالب عليهم ذكر الله تعالى وإنما الشيطان
يطوف بقلوبهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة قال الله تعالى إن الذين
اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وقال مجاهد في معنى قوله تعالى من شر
الوسواس الخناس قال هو منبسط على قلب الإنسان فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض وإذا غفل
انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام
وبين الليل والنهار ولتضادهما قال الله تعالى استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وقال أنس
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي
الله التقم قلبه وقال ابن وضاح في حديث ذكره إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان
بيده وجهه وقال بأبي وجه لا يفلح وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم الآدمي ودمه فسلطنة الشيطان أيضا
سارية في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم إن الشيطان ليجري من
ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)